# ابن خلدون

## ٧٣٢ - ٨٠٨ هـ - ١٣٣٢ - ١٤٠٦ م

لحضرة الأستاذ محمد سعيد العريان

---

### نسبه ومنشؤه :

هو أبو زيد ، ولى الدين ، عبدالرحمن بن محمد . . . . . ابن عبد الرحمن ابن خلدون [1]

وينتسب أجداده الأوائل إلى بنى حجر من ملوك كندة ، وكان منزلهم حضرموت من بلاد اليمن ، ومنهم وائل بن حجر وافد اليمن على النبى صلى الله عليه وسلم .

فلما ظهر الإسلام وامتدت فتوحه حتى بلغت الأندلس ، هاجر إليها من حضرموت رأس هذه الأسرة الحضرمية فى أول عهد الفتح ، واسمه خالد بن عثمان ، فنزل بمدينة قَرْمُونَة من أعمال أشبيلية [2] ، وقد ذاع ذِكْر

---

(١) يكثر هذا الوزن فى أسماء الاسر الاندلسية والمغربية ، فمنهم زيدون ، وعبدون ، وسعدون ، إلى أسماء أخر ، ويرى المستشرق دوزى أن الواو والنون زائدتان هنا للتكبير ، وأن مثل ذلك فى اللغة الاسبانية ، نحو : قولهم جراندون ( grandon ) أى كبير جدا ، وموجيرونا ( mugerona ) أى امرأة كبيرة ، فاذا صح ما يقوله دوزى كان ذلك أثرا من آثار الاسبانيين فى لغاتهم ، وكان معنى خلدون خلدا الكبير ، أو خالدا على التخفيف ، وهو اسم أولهم فى الاندلس .

(٢) مدينة عظيمة على شاطىء نهر الوادى الكبير ، وهى المدينة الرابعة فى الاندلس ، واسمها بالاسبانية ( Séville )

بنى خلدون بها ، منذ عهد الأمير عبد الله بن محمد الأموى ، فى أواخر القرن الثالث للهجرة ، فكان منهم وزراء وقواد وزعماءُ وحَجَبة ؛ واستمر شأنهم فى إقبال طوال عهد بين أمية وبنى عبّادوالمرابطين والموحّدين،فلما اضطربت أحوال الأندلس وقوى سلطان النصرانية فى القرن السادس الهجرى ، غادروا الأندلس إلى إفريقيّة ، فأقاموا حيناً بسَبتَه ، ثم اتخذوا تُونُس مستقَرّاً و مقاما .

وظلّ شأن بنى خلدون فى المغرب كما كان شأنهم فى الأندلس : يتقلدون الجسيم من أمر الدولة ، حتى كان مولد ابن خلدون ، فى رمضان سنة ٧٣٢ هـ ( مايو سنة ١٣٣٢ م ) فلم يكد يتجاوز السابعة عشرة من عمره حتى هلك أبواه فى الوباء العام الذى اجتاح أوربة وإفريقية سنة ٧٤٩ هـ .

حياته :

تشبه حياة ابن خلدون أن تكون مغامرة من المغامرات المحبوكة أوقصة من نسج الخيال ، فقد تقلبت عليه ظروف وأحداث لم تجتمع لمثله ، ومضى حياته ؛ يتنقل بين بلاد المشرق والمغرب ، يستطلع من أخبارها ويدرس من حوادثها فكان له من ذلك ماهيأه لهذا النضج العقلى الذى أوحى إليه أن ينشىء ما أنشأ فى فلسفة التاريخ ، وأحلّه فى الذروة بين رجال الفكر العربى ، بل بين قادة الفكر فى العالم كله .

وليس يتسع المقام هنا لتفصيل الأحداث التى مرت به أو التى مرّ بها ، وحسبنا أن نشير إلى أنه قد خدم فى بلاط عشر دويلات فى المغرب والأندلس بين وزير وسفير وحاجب (١) ، وصحِب التاريخَ فى كل دولة منها صحبة ذاتَ أثر ، فتاريخها من تاريخه ؛ وقد برزت عبقرية ابن خلدون فى هذه

(١) كانت الحجابة فى ذلك العصر تعادل رياسة الوزارة فى عهدنا ، وتعنى بالسفارة ما كان يكلف الأمراء من الوساطة بينه وبين القبائل للدعاية أو الاستنفار .

الفترة السياسية من حياته بروزاً يكشف عن مقدار ما كان له من المنزلة والسلطان فى هذه الدويلات ، على ما بينها من أسباب الخلاف والتربص للكيد؛ على أنه لولا التجاربُ القاسية التى مرَّ بها فى هذه الحقبة لما تهيأ له أن ينتهى إلى هذه النتائج العظيمة التى بلغها فى مقدمته ، والتى لا يزال لكثير منها إلى اليوم اعتبارُها العلميُّ فى الشرق والغرب .

وهذه الفترة تنتظم حياته منذ سنة ٧٥١ هـ — وهو فى العشرين من عمره — إلى سنة ٧٧٦ هـ ، ثم ملّ السياسة ومغامرتها فانقطع حيناً إلى الدرس والقراءة وأنشأ مقدمته وهو بعيدٌ عن معترك النِّضال فى إحدى قلاع تونس ، ولكن روحه الوثابة لم تهدأ إلى هذه العزلة ، فعاد إلى مغامراته السياسية ، فما زال فيها يَخُب ويَضَع حتى سنة ٧٨٤ هـ

ولقد لَقِى فى حياته السياسية صنوفاً من التجاريب وألواناً من العذاب لعلّ أخفّها ما كان من حبسه فى سنة ٧٥٨ — ٧٥٩ هـ ، حَبَسه السلطان أبو عنان أمير فاس وتِلِمسانَ وبجاية .

وفى سنة ٧٨٤ هـ ، بدأت حياة ابن خلدون فى طورٍ آخر بالرحلة إلى القاهرة ، فترك السياسة وألاعيبها لينقطع للعلم ؛ وقد عرف له المصريون منزلته ، فتسابقوا إلى حَلقة درسه بالأزهر ؛ وبرَّه كذلك أمراءُ مصر فزيَّنوا له المُقام بما أقطعوه من وظائف وما أجرَوْا عليه من الرزق؛ ومازال يتقلب بين دوائر العلم فى مصر حتى وَلِىَ منصب قضاء المالكية .

على أن ابن خلدون لم يَزَلْ تنزِعُ به نوازعُ دائه الأصيل إلى السياسة ولا يَجِدُ مُتَنَفَّساً ، حتى كان ظهورُ تيمورلنك ومحاولتُه غزوَ الشام سنة ٨٠٣ ، فتَهيَّأت له الفرصة ليؤدِّى عملاً ، فأنشأ صلةً بينه وبين تيمورلنك وأهدى إليه من هداياه وقَبِلَ من جوائزه .

ولم يكن ذلك كل عمله السياسى منذ هبط القاهرة ، بل كانت له إلى ذلك

محاولات لربط أواصر الود بين سلاطين مصر وأمراء المغرب ، فزيَّن لسلطان مصر أن يُهدىَ إليهم وأن يقبل من هداياهم ؛ فكان بذلك سفيرا من سفراء السلام بين هذه البلاد الشقيقة المتجاورة .

ثم كانت وفاته فى مصر سنة ٨٠٨ هـ ( ١٤٠٦ م ) ، ودفن بمقابر الصوفية خارج باب النصر .

منزلته بين أهل التاريخ :

تعد مقدمة ابن خلدون أساس شهرته ؛ وليست هى كلَّ ما أنتج ، ولكنه بها وحدها صار ماصار بين قادة الفكر ، فقد أنشأ بها فنًّا واستحدث علماً جديداً ، فهو أول من وضع الفلسفة الاجتماعية فى قالب علىّ ، وأول من حدَّد حدود هذا الفن وقعَّد قواعده ؛ ولا نعرف فى تاريخ الشرق أو الغرب رجلا قبل ابن خلدون تناول هذا الفن من قريب أو من بعيد ، وكل من جاء بعده فعلى أساسه يبنى ، ولا يزال كثير من نظرياته فى السياسة والاجتماع والاقتصاد والعمران أصلا يُعوَّل عليه ويُستَنَد إليه .

وليست هذه المقدمة كتاباً مستقلا ، ولكنها صدر كتابه المسمى : « كتاب العبر ، وديوان المبتدإ والخبر ، فى أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر » : وهو كما يُفهم من عنوانه كتاب تاريخ ، وقد قسمه مؤلفه إلى ثلاثة كتب ؛ الكتاب الأول منها هو هذه المقدمة ، والكتابان الباقيان فى أخبار العرب ومن عاصرهم ، وأخبار البربر والمغرب ، ويتبع ذلك ما يصح أن نسميه كتابا رابعا ، وهو التعريف بابن خلدون ورحلاته بين المشرق والمغرب ، وقد قصَّ فيه حياته وعرف بنفسه على نمط طريف لم يسبقه إلى مثله سابق .

وينقسم الكتاب الأول — وهو المقدمة — إلى تمهيد وستة أبواب :

الباب الأول : فى العمران البشرى على الجملة ، وفيه ست مقدمات :

الباب الثانى : فى العمران البدوى والأمم الوحشية والقبائل ومايعرض فى ذلك من الأحوال ، وفيه تسعة وعشرون فصلا .

الباب الثالث : فى الدولة العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية وما يعرض فى ذلك كله من الأحوال ، وفيه ثلاثة وخمسون فصلا .

الباب الرابع : فى البلدان والامصار وسائر العمران وما يعرض فى ذلك من الأحوال ، وفيه اثنان وعشرون فصلا .

الباب الخامس : فى المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع ومايعرضه فى ذلك كله من الأحوال ، وفيه ثلاثة وثلاثون فصلا .

الباب السادس : فى العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه وما يعرض فى ذلك كله من الأحوال ، وفيه خمسون فصلا .

***

وأظهر مايتميز به تاريخ ابن خلدون - فى جزأيه الثانى والثالث - على ماسبقه من كتب التاريخ، هو تنظيمه وحسنُ مَعْرِضه ، وقد رتبه على الحوادث والامم والأسر الحاكمة ، لاعلى السنين كبعض من سبقه من مؤرخى العرب ؛ ثم هو أصدقُ مايروَى عن تاريخ المغرب والبربر ، وإنه فى ذلك ليكاد يُعد الوحيدَ فى بابه ؛ إذ كان يروى عن المشاهدة والآثار الماثلة والتاريخ الحىّ فى أعراقه ودَمه.

مؤلفـــاته :

ولابن خلدون غير المقدمة والتاريخ مؤلفات ، نذكر منها :

شرح قصيدة البردة للبوصيرى .

تلخيص كتاب المحصل للرازى فى الفقه .

شرح أرجوزة فى الفقه للسان الدين بن الخطيب .

تلخيص بعض رسائل الفيلسوف ابن رشد .

رسالة فى المنطق

رسالة فى الحساب .

على أن هذه المؤلفات كلها لم يصل إلينا منها غير مقدمته وتاريخه .

منزلته الأدبية :

نشرت مقدمة ابن خلدون لأول مرة فى مصر سنة ١٢٧٤ ( ١٨٥٧ م ) أى منذ نحو قرن ؛ وماذا كانت الآداب فى مصر منذ نحو قرن ؟ ولمن كان يقرأ القارىء العربىُّ فى مصر وغيرِها من بلاد الشرق ؟ هل كان ثمَّةَ إلا البيان النازلُ والعبارةُ المتهافتةُ والسجعُ السخيفُ والزُّخرُفُ اللفظى الذى يَستهلِك المعنى ؟ فلا عجب إذن أن يكون ظهورُ مقدمة ابن خلدون ببيانها المرسل وأسلوبها الطَّلْقِ ومعانيها البِكر ، نَموذَجاً يُقاسُ ويحتذى ويضرب به المثل : ومن هنا قدروا لابن خلدون منزلته الأدبية ، وجعلوه من أصحاب البيان الرائع والإنشاء البليغ ، وارتفعوا به منازال عن منزلته . . .

وإنه لأديب ، وإن له لمنزلة بين أبناء العربية ، ولكنها لا تبلغ به ما أرادوا ؛ فإن له ميزات يرتفع بها وعيوباً تنزل به .

وأول ماينبغى أن نشير إليه من ميزاته

ا ــ هو ذلك البيان المرسل فى جملته ، لا يظهر فيه أثر الصنعة إلا قليلا من قليل .

ب ــ ثم اتساقُ أسلوبه على نظام منطقى يؤدى بالمقدمات إلى نتائجها فى أبسط صورة وعلى أيسر وجه .

حـ ــ ثم مرونة عبارته وقوة تحملها لأداء كثير من الآراء المعقدة والخواطر المبعثرة ؛ مع حسن التقسيم وضبط الفروع وتحديد المصطلحات .

على أننا نغمطه حقه لو قسنا أدبه بمقدمته ، فإنك لتقرأ شعره وما كان بينه وبين لسان الدين بن الخطيب من رسائل ، وما يصف من حياته فى كتاب الشريف ، فتقرأ شعراً ونثراً حقيقين بالدرس والعناية .

ومما يؤخذ عليه ويعاب به أسلوبه :

ا ــ الغلط فى استعمال الكلمات ووضعها فى غير موضعها

ب ــ استعمال العامى من الكلمات لغير ضرورة والعدول به عن الفصيح السائغ .

جـ ــ الاقتضاب المخل او الإسهاب الممل ؛ فقد يجتزى الحديث فى مواضع قبل وضوح المراد منه فيدع القارىء فى حيرة ! وقد يسهب ويطيل فى مواضع أخرى فيبعث السأم والملالة ، وقد يفصل بين جزأى الجملة بالاعتراض الطويل الذى يحمل على اللبس والغلط

د ــ كثرة أغلاطه النحوية ، مثل ترك الشرط بلا جواب والمبتدإ بلا خبر

هـ ــ الخطأ فى استعمال الضمائر والتوسع فى الاستخدام ، بحيث يضل القارىء فى إعادة الضمير على صاحبه ، وقد يستعمل الضمير وليس فى الجملة ما يعود عليه

و ــ وهو فى باب العطف مثله فى باب الضمير ، لا يتحرى القصد ولا يكشف عن الغرض إلا بعيدا من بعيد .

ولكن ذلك كله لا ينقص من منزلته الأدبية ، وإنما ذكرناه ليعرفه قارئه على حقيقته ، فلا يضل ضلاله به ولا تغفله حسناته عن مساويه .

وإنه لما يحملنا على التنويه بأدب ابن خلدون من الناحية الموضوعية شيئان :

ا ــ أنه أديب عالم ، وليس يتأتى للكثير من أهل الادب أن يجمعوا بين المنزلتين .

ب ــ وأنه أول كاتب عربى فيما نعرف خصص لتاريخ حياته كتابا كاملا ، وحسبك به من كتاب !

خاتمة

ويبدو فى بعض ما يكتب ابن خلدون تحامل على العرب ، وإنه لعربى حضرمى ، ولكن ذلك لا ينبغى أن يخدعنا عن العصبية المغربية التى يفور بها دمه ، فقد هاجر رأس أسرة خلدون إلى المغرب فى القرن الأول للهجرة ،

وكان خروج المغرب من سلطان العرب فى القرن الثانى ؛ فماذا تراه قد بقى فى دمه من التراث العربى والشعور بالعزة العربية بعد ستة قرون ، والمغرب مغرب بناسه وعواطفه وتقاليده وروحه الثائرة ؟ فإن المكان ليوحى إليه وإن الوزراء والحجاب وذوى السلطان من أجداده فى المغرب ليتحدثون إليه من وراء الغيب ، وإن طموحه وشهوته إلى الحكم وتقلبه بين دويلات المغرب من بلاط إلى بلاط لحقيق بأن يجد له عصبية من شهوته غير العصبية التى فى دمه ، من كل ذلك لا ترى تحامل ابن خلدون على العرب ينزل منزلة الرأى المجرد ، ولكنها أحكام يعوزها الأناة وصدق النظر .

***

وبعد ، فقد كنا على أن نسهب فى هذا البحث حتى نبلغ به مانشاء فى الكشف عن حياة ابن خلدون ، ومذهبه ، وآرائه ، وما أجد على العلم وعلى التاريخ ، ولكن اجتزأنا خوف الإملال والمشقة على القارىء وإن له فى القليل ماقد يغنى عن الكثير ، وقد أفاض كثير من المؤلفين(*) وأهل النظر فى الحديث عن ابن خلدون فى كثير من نواحيه ، فمن أراد المزيد فثمة المورد الذى لاينضب ، والمعين الذى لاتكدره الدلاء .

محمد سعيد العريان .

---

(*) انظر الكتب الآتية :

(١) التعريف بابن خلدون : ترجمة الكاتب بقلمه ، ونشر فى آخر تاريخه : المجلد السادس طبعة بولاق

(٢) فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ـ للدكتور طه حسين بك

(٣) ابن خلدون : حياته وتراثه الفكرى ـ للأستاذ محمد عبدالله عنان

(٤) ابن خلدون مؤرخ الحضارة العربى فى القرن الرابع عشر لفون فيسندنك Von Wesendonk ترجمة الاستاذ محمد عبدالله عنان

(٥) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرى

(٦) الروائع ١٣ ، ١٤ ، ١٥ من السلسلة الثانية ؛ للاستاذ فؤاد أفرام البستانى

(٧) مقدمة تاريخ ابن خلدون : للاستاذ أحمد أمين بك ، طبعة الحلبى